# من ذاكرة الحرب السوريّة المُهمَّشة: قصّة نجاة مُراهقتَيْن أَنضجتْهُما نيران الحرب دفعةً واحدة

زكيّة قرنفل

## تمهيد

ثمّة مخيّلة مُتوارَثة عن الحرب، أبطالها رجال يُخطِّطون ويُقاتلون ويُقتلون، يربحون ويخسرون. أمّا المرأة فيها، فهي كتلك الإضافات التي يدسّها المُخرج في أفلامه، كي تكون بمنزلة مشهدٍ جانبيّ لإضحاك المُشاهِد. الجميع يتعلَّم في المدرسة أنّ ألمانيا بقيادة هتلر ورجاله خسرت الحرب العالَميّة الثانية، ولكْن مَن يُعلِّم الجميع عن دور النساء الألمانيّات في الحرب؟ بل مَن منهم سمع بـ»اغتصاب برلين» وكيف نَكَّلَ جيش الحلفاء المنتصر بأكثر من مليونَي امرأة ألمانيّة من خلال الاغتصاب والسحل في شوارع برلين؟

كذلك في التراجيديا السوريّة، خلال السنوات الـ10 الماضية، مجموعة من القصص لنساء عرفوا من الحرب كلّ وجوهها، وكان لهم دور وحضور ومآسٍ في شتّى مجالاتها، إلّا أنّ وجوههنّ لا تزال مجهولة ومُغيَّبة عن السرديّة الشائعة للحرب. أكثر من 23 ألف ضحيّة من النساء وآلاف الجريحات والمفقودات حتّى اليوم[1] (بحسب إحصاءات

(1) «تقرير لجنة التحقيق الدوليّة المُستقلّة المَعنيّة بالجمهوريّة العربيّة السوريّة،» **الأُمم المتّحدة مجلس حقوق الإنسان**، مُتاح على:
https://www.ohchr.org/AR/HRBodies/HRC/IICISyria/Pages/ReportoftheCommissionofInquirySyria.aspx

الأُمم المتّحدة ومنظّمات حقوقيّة)، هي الحصيلة غير النهائيّة، لمجموعة من القصص والنضالات والعذابات التي خاضتها (ولا تزال) النساء والمُراهقات السوريّات مرغمات خلال الأعوام المُنصرمة.

الفتيات والمُراهقات يشكِّلن نسبةً كبيرة من سكّان سوريا، إذ يشير عددٌ من التقارير الإحصائيّة المحليّة[2] والدوليّة[3]، إلى أنّ نسبة مَن أهمّ أقلّ من 15 عاماً كانوا يُشكِّلون في العام 2012 حوالى 36% من مجمل السكّان، وقد كانت هذه الفئة عرضة لدوّامات العنف والمآسي بشكلٍ عميق خلال الحرب، وخصوصاً الفتيات المُراهقات اللّواتي وجدْنَ النجاة واللّواتي لم ينجيْنَ، ممّن تعرَّضْنَ للقتل والضرب والتهجير والخطف والاغتصاب والتزويج الإجباريّ والاستغلال، وباقي أشكال العنف المعنويّ والجسديّ.

## أصحاب القصّة

وهنا نوثّق قصّة لأُختَيْن مُراهقتَيْن، ننكأ من خلالهما خبايا الذاكرة الأنثويّة السوريّة، التي لم تفصِح عن نفسها بشكلٍ كاملٍ بعد، في ظلّ التهميش الذي يحلّ بها مع كلّ مرّة يعلو فيها دويّ المَدافع في هذا العالَم.

آية وماري التّاجر (مواليد 2003، 2002)، من قرية الصالحيّة في دير الزور، الريف الغربيّ لمدينة البوكمال، أختان لعائلة من الطبقة الاجتماعيّة الفقيرة، تضمّ 3 أخوات وأخوَين، كان الوالدان يعملان في الزراعة قبل اندلاع الحرب. وتعيش الفتاتان حاليّاً في لبنان، منطقة الشيّاح، عين الرمّانة.

حاليّاً، يعمل معظم أفراد العائلة، بمَن فيهم الأُخت آية، بأعمال يدويّة متفرّقة، بهدف تحصيل الحدّ الأدنى من متطلّبات الحياة الأساسيّة، من مَسكن ومَأكل ومَلبس. ومن المُفترض أن تنتقل العائلة إلى سوريا مرّة جديدة خلال الفترة المُقبلة، من غير الأب، بعد تعذّر الكثير من أمور الحياة في لبنان.

(2) «تعداد السكّان في الشريحة العمريّة من 0 ـ 14 (% من الإجمالي)»، **البنك الدوليّ**، متاح على:
https://data.albankaldawli.org/indicator/SP.POP.0014.TO.ZS.

(3) «التركيبة السكّانيّة،» **Heritage for Peace**، متاح على:
http://www.heritageforpeace.org/syria-country-information/geography/?lang=ar.

تـمّ استقصاء المعلومات الـواردة في النصّ عبر مُقابلتَين شخصيّتَيْن اثنتَين غير منظّمتَين، بحضور الأُختَيْن معاً، بموافقةٍ من الأهل (تصريح خطّيّ)، وذلك في إطار مهمّة تدوين مجموعة من القصص التي تخصّ تجارب فئة الشباب والمُراهقين في الحرب مع الأُختَين التاجر وغيرهما من الفتيات والفتيان، لمشروعٍ صحافيّ تقوم به الكاتبة، في ضوء عملها في المجال الإعلاميّ ـ التنمويّ، هدفه تسليطٌ الضوء على قصص «النجاة» لهذه الفئة التي تدفع الثمن الأكبر في الحرب.

خلال المُقابلات، أُتيح المجال أمام المُشاركات للإدلاء بتجربتهما بطريقة التداعي الحرّ، مِن دون أيّ محظورات، وتمّ تدوين المعلومات كافّةً الواردة بشكلٍ مباشر، ما عدا بعض الأسماء التابعة للأفراد أو التنظيمات الوارد ذكرها في القصّة حرصاً على خصوصيّة الفتيات وأمنهنّ، وقد تمّ الاقتباس عن شهادة الأُختَين (باللّهجة العاميّة) إلى الفصحى، فيما تمّ عرض أجزاء من القصّة بما يتناسب مع موضوع النصّ وحدود صلاحيّات النشر.

## حرب ما قبل الحرب

في سنة 2014، كان عمر الأُختَيْن 11 و12 عاماً، نَضَجَتا بين زخّات الرصاص فأضحت الكبرى كأنّها ابنة ثلاثين. تقول الأخت الكبرى ماري: «شعرتُ أنّي كبرت مرّة واحدة، كنتُ طفلة وفجأة أصبحتُ عجوزاً. حدث ذلك فعلاً يوم أُجبرنا على مشاهدة قطع رأس شخص أعصى أوامر داعش، وكان علينا أن نتمالك أنفسنا ونتعامل مع حياتنا الجديدة. فأرواحنا الآن ملك لهؤلاء الرجال المُلثّمين، الذين لا يعرفون الرحمة ولا يضحكون أبداً».

في حياة هاتَيْن الطفلتَيْن، تشابكت خيوط التقاليد والأعراف الاجتماعيّة مع الواقع السياسيّ والعسكريّ الجديد، ففُرِض عليهما حِصارٌ مُطبق، في قلب حصار آخر كان يفرضه مقاتلو «داعش» على القرية التي تقع ضمن الريف الغربيّ لمدينة البوكمال الشرقيّة.

قبل اندلاع الحرب في سوريا في العام 2011، لم تكُن الظروف الاجتماعيّة بأفضل أحوالها بالنسبة إلى النساء. مجموعة كبيرة من الأعراف والتقاليد قيَّدت الذات الأنثويّة بمفاهيم وأدوار محدودة، يُمكن اختزالها جميعاً بكلمة «عيب». وهكذا مُنِعت الأُختان ماري وآية من اللّعب مع ابن جيرانهما المُفضَّل، مع بداية العام 2012، لِتُجرَّدا لاحقاً من متع وحقوق أخرى مع اشتداد المعارك في سوريا وسيطرة المسلَّحين على القرية.

«في الوقت الذي كان فيه الذكور يلعبون بحريّة كاملة، وبألعاب مسلِّية، بعيداً عن المنزل، بين الأشجار وقرب الفرات، يركضون ويتسلّقون ويقفزون، كانت القيود تزاد عليّ وعلى أختي يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، فهناك الكثير من الأشياء التي يمنعها «العَيب»، والتي تظهر في حياة النساء، من دون أن ندريَ مصدرَها، ولكنّنا مُجبرات على الطّاعة». كنّا نشعر بأنّنا لا نمتلك من أنفسنا شيئاً، تقول ماري. فالمُراهقات في الثقافة السوريّة السائدة، يكبرنَ بعدد «العيب» الذي يغزو حياتهنّ، وليس بعدد السنوات في أعمارهنّ.

وتروي الأخت الصغرى، أنّها في العام 2010، سمعت أحد أفراد العائلة يُوبِّخ زوجته لأنّها طالبته بالسماح لابنتها بإكمال تعليمها الأساسيّ، فأصبح لديها قلق كبير بأنّ يوماً ما سيأتي دورُها، وسيخرجونها من التعليم، وهكذا بدلاً من أن تحلِّق بأفكارها ومخيّلتها الطفوليّة، أضحت قلقة ومضطربة من أجل دراستها، ولم يكُن عمرُها قد تجاوز السنوات السبع.

تلك الحرب الطاحنة، التي خاضتها فتيات ومُراهقات كثيرات في سوريا، قبل اندلاع الأزمة، أضعفتهنّ وجَعلت منهنّ أهدافاً سهلة لأعمال العنف والاستغلال التي جاءت بعد ذلك في العام 2011، والتي كانت جزءاً من التحضير للحرب بكلّ بشاعتها.

## وجهاً لوجه مع الموت

مع وقوع القرية تحت سيطرة تنظيم داعش، دَخلت أحكامٌ جديدة على حياة الناس، رجالاً ونساءً، لكنّ النساء، وخصوصاً الفتيات المُراهقات، تعرَّضْنَ لمُعاناةٍ مُضاعفة، كان بعضها يجري تحت لحاف اللّيل، حيث يتمّ اختطاف الفتيات واغتصابهنّ لإجبارهنّ على دخول دائرةٍ من الاستغلال والضعف، ليكُنّ في أفضل الحالات، راضخات للأمر الواقع.

هذا الوضع فَرَضَ قيوداً وإجراءاتٍ إضافيّة على الأُختَين، فأصبح خروجهما من المنزل حُلماً. أمّا البُرقع الصغير، التي خاطته أمّهما فأصبح الهويّة الوحيدة لهما. مساحة صغيرة من القماش مَنعت عنهما كلّ أشكال التواصُل مع العالَم الخارجيّ، خوفاً عليهما من الاختطاف وتحضيراً لهما لأدوارٍ جديدة، أدوار الزوجات المُطيعات التّابعات للكيان الذكريّ الصاخب.

مع اشتداد المُعاناة، مع كلّ معركة يذهب فيها الرجال ولا يعودون، مع كلّ مُحاكَمة ميدانيّة، يُجبر أهل البلدة على حضورها، بكلّ تفاصيلها المُرعبة، لم تَعُد الحياة مُمكنة حتّى لأكثر العائلات التزاماً بالعادات والتقاليد! فما أضحى مفروضاً وشائعاً مع عناصر التنظيم الإرهابيّ، لم ينجح بأن يُصبح الواقع والتراث الجديد! والنساء اللّواتي تمّ التعويل عليهنّ لإخضاعهنّ وترويضهنّ بالمطلق، وعلى الرّغم من كلّ الانكسارات، خبّأن في جيوب جلابيبهنّ رغبةً عارمة في الخروج من ذاك الجحيم.

تقول الأخت الكبرى ماري: «كنتُ أعتقد أنّ أمّي سترضى بما يفرضه علينا الدواعش، فهي لطالما كانت متشدِّدة وحريصة. إنّما تفاجأتُ أنّها في كثير من الأيّام، كانت تتحدّث إلينا، على وجبة كسرات الخبز واللّبن التي لم نجد غيرها في كثير من الأحيان، عن خوفها، وبحثها عن سبيلٍ للخروج من القرية، وخصوصاً مع تهديد أبي لمرّات عديدة، من قبل التنظيم، لأسباب لم نكُن نعرفها».

وتضيف: «في أحد الأيّام، دقَّ مسلّحون الباب، وتحدّثوا إلى أبي، تخايلتُ يومها وأنا مسمّرة في زاوية غرفة الجلوس، أنّهم هنا ليأخذوني، لا أعرف كم استغرقني الوقت في التفكير، ولكنّني اتّخذتُ قراراً حاسماً بقتل نفسي، كي أوفِّر عليّ وعلى الآخرين المأساة التي حدثت مع ابنة جيراننا. لم أكُن أعرف كيف، فكّرتُ لأيّام، وحين فاتحتُ أختي الصغرى بالأمر، باحت بذلك لأمّي، ولكنّ أمي اكتفت بنظرة عميقة، لا أعرف تفسيرها، حزن أم غضب، أمّا أبي فاكتفى بنظرة الانكسار والعجز».

عقب ذلك بأسابيع، أَقبلت العائلة على مُخاطَرةٍ كبيرة، قد يكون ثمنها أرواحهم، رحلة في الصحراء هرباً من جحيم الحياة التي يعيشونها. فكان عليهم التحضُّر إمّا للنجاة أو للموت في آنٍ، فكِلا الاحتمالَيْن قائمَيْن، وكلاهما على حدّ تعبير الأُختَين: كان «خلاصاً»، ولكنّ فشل عائلات أخرى بالهرب، تَرَكَ خوفاً واضطراباً في النفوس، وخصوصاً بعدما سمع الجميع بمصير تلك العائلات، وسحْلِ جثثهم على الملأ.

بعد تحضير رسائل الوداع للأقارب، الزوّادة، والأوراق الثبوتيّة في ساعات قليلة، جاء وقت الجسد الأنثويّ. لساعات أطول جَلستِ الأم تلفّ الأقمشة بإحكام على جسد ماري وآية، ففي حال موتهما في الصحراء، لا تنكشّف الجثّتان للغرباء العابرين، ولا للمُقاتلين المُرابطين في الكمائن، وهنا تتحدّث الأختان عن فكرة راودت كلّاً منهما، وهي أنّ تلك

الهويّة الأنثويّة المُحاطة بالذنب والمَخاوف، لا تنتهي في الأرض، بل تُلاحق أجسادهنّ إلى ما بعد الموت، وهنا تقول الأخت الصغرى آية: «صرتُ أتخايل أنّ مَن سيُحاسِب أرواحنا في السماء ليس الله، إنّما وجوهٌ لأقارب وأشخاص ومقاتلين رأيتها يوماً في القرية»، جحيم «الآخرين» كان أشدّ وطأة على الأختين مِن أيّ جحيم آخر.

نجحت العائلة في التسلُّل ليلاً من القرية، ساروا طويلاً، وخافوا كثيراً، وعندما وصلوا قلب الصحراء، كان الحرّ والجوع، أسهل ما يُمكن مواجهته، مُقارَنةً بالسيناريوهات المتوقَّعة في ظلّ وجود العديد من الكمائن والفصائل والجهات التي قد تُلقي القبض على العائلة المتسلِّلة.

انتهى المطاف بالعائلة مرميَّة تحت شجرة، والأمّ تعاني من المرض والتعب، ليتبيَّن لاحقاً أنّها كانت حاملاً، أمّا ماري وآية، فكانتا تُفكِّران بنفسيهما، بذلك الجسد المُخيف، الذي لا يريده أحد، ويرغب الجميع بالسيطرة عليه! تبخّرت طفولة الأُختان ومُراهقتهما مع حرّ الصحراء، وحين تمكَّنت العائلة من بلوغِ تجمُّعٍ للناس، أوّل ما خطر ببالهما ليس الماء ولا الطعام ولا المَسكن، بل سؤال واحد: «هل سيقوم هؤلاء باغتصابنا؟»، ليتبيّن لاحقاً أنّ هؤلاء الأشخاص هُم تنظيم كرديّ، احتجز العائلة لفترة، ومن ثمّ أَطلق سراحها، لتتمكّن لاحقاً من بلوغ دمشق، وهناك، في ظلّ كثافة النزوح وصعوبة الحال، لم تَجِد العائلةُ مأوىً مُستداماً، فاتّخذ الأبوان القرارَ بالعبور إلى لبنان.

عبر طريقٍ غير شرعيّ، وصلت العائلة إلى لبنان، وفي الأيّام الأولى مَكثت في المخيَّمات، وهناك بقوا لمدّة شهور، من دون أن يجدوا عملاً أو أماناً، ومن ثمّ جاؤوا بيروت. كان ذلك في العام 2016. في بيروت، في غرفةٍ صغيرة، في حيٍّ شعبي، بدأت العائلة تستجمع قواها، وكانت آية وماري قد دخلتا مرحلةً عمريّة جديدة، أصبحتا ناضجات تفكِّران بقضايا كبيرة، وتُحاولان مساعدة أبويهما في إيجاد حلولٍ وفُرص عملٍ ومُساعداتٍ للعائلة، من غير أن تعرفا شيئاً واحداً عن جسدَيهما.

وعن ذلك تقول الأختان: «نشعر بأنّنا في الأربعين والخمسين من عمرينا، فأحلام الطفولة ومشاعرها اختفت، تلاشت مع كلّ فكرة مُخيفة اجتاحتنا في أثناء حياتنا في القرية، أو خلال طريق الهروب، ولكنْ على الرّغم من ذلك، لم نكُن نعرف شيئاً عن

الأنوثة، عن كلّ تلك المخاوف والمحظورات، عن كلّ تلك الأشياء التي دفعت بوالدتنا للقول: يا ليتكم كنتوا شباب وريّحتوني».

بعد مدّة، التحقت العائلة ببرنامج تمكين وتأهيل مع إحدى المنظّمات الإنسانيّة، وهناك ظهرت للأُختَين احتمالاتٌ أخرى، غير الذنب والقلق والاضطراب وكره الكيان الأنثويّ. لاحقاً، تمكّنت آية من الالتحاق مجدّداً بالمدرسة وتقديم طلب حرّ لامتحانات المرحلة المتوسِّطة الرسميّة. أمّا ماري، فبدأت تتعلّم مهارات الكمبيوتر، وتمكّنت مع والدتها، بالالتحاق ببرنامج لإنتاج الحلى والصناعات اليدويّة، التي أصبحت لاحقاً مصدر رزق واستقرار للعائلة، والجسد الذي كان لعنة، أصبح نعمة وسنداً.

تقول ماري: «تعلّمت من الحياة، أنّ الأنوثة والذكورة بريئتان من كلّ الرعب الذي نعيشه، بل الظروف والتقاليد هي التي تصنع أفكاراً وأنماطاً، يعتقد الذين لم يخرجوا منها قط، أنّها هي الحالة الطبيعيّة للإنسان»، وتضيف: «كنتُ أفكِّر أنّ الحرب هي شأنٌ خاصّ بالرجال، ولكنّي اليوم أعرف، أنّ النساء هُم أكبر وأهمّ عنصر في الحرب، وأحياناً أتمنّى لو أنّي لم أكُن خائفة ومكسورة كما كنتُ في سوريا، لكنتُ قاتلت داعش. ولكنّهم أخافونا حتّى لا نفعل ذلك، وبالتالي يسيطرون على الناس».

حاليّاً، تُكمل آية دراستها، فيما تزوّجت ماري ابن أحد أقربائها، وتقول إنّها ستُربّي بناتٍ وصبياناً أقوياء وغير مكسورين، قادرين على إخماد الحرب وليس على إشعالها، مؤمنين بقوّة الكيان الأنثويّ لتحصين المُجتمع، وليس إضعافه.